## ٣- ما بين الميلاد المبارك وشروق شمس البعثة النبوية

### ( أ ) زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب، ورؤيا آمنة أم النبي ﷺ

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوجه أبوه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

ولم يلبث أبوه أن توفى بعد أن حملت به آمنة ودفُن بالمدينة عند أخواله «بني عدي ابن النجار» فإنه كان ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة الطاهرة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة، وهذا الجنين الطاهر يتولى الله عَزَّ وَجَلَّ بحكمته ورحمته تربيتَه وتَأديبَه وإعدادَه لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي، قيل للنبي ﷺ ما أول بدء أمرك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام**»(١).

**ودعوة إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

**وبشرى عيسى**: كما أشار إليه قوله عَزَّ وَجَلَّ حاكيًا عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ووقوله: «**ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام**». قال ابن رجب: وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٦٠٠) التاريخ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه ووافقه الذهبي، وله طرق وروايات مختلفة وانظر: «الصحيحة» رقم (١٥٤٥/ ١٥٤٦).

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (١).

**وقال ابن كثير:** وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» وفي «صحيح البخاري»: «**وهم بالشام**»(٢).

## (ب) ميلاد المصطفى ﷺ ونشأته

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: ثمانية، وقيل: عشرة، وقيل: ثنتي عشرة وعليه الأكثر، وذلك عام الفيل تباشير الصباح، وولد المصطفى ﷺ (٣).

وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، وهي التي سميت بعد ذلك بدار محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، وهي الآن مكتبة عامة.

---

(١) «لطائف المعارف» [٨٩].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١٨٤) ط. الحلبي (١/ ٢٦٨) ط. الشعب، والحديث: رواه البخاري (١٣/ ٢٠٦) الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣/ ٦٥) الإمارة.

(٣) ما ورد في الروايات من أنه ﷺ ولد مختونًا مسرورًا فليس بثابت، والصواب: أنه ﷺ ختن على عادة العرب وكان عموم هذه السنة للعرب مغنيًا عن نقل معين فيها، وكذا لم يصح انفلاق البرمة التي وضعها عليه النساء، وكذا لم يصح أنه ﷺ كان يناغي القمر ويشير إليه بأصابعه، وانظر «مرويات العهد المكي» للدكتور عادل عبد الغفور.

وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية أمَةُ أبيه، وأول من أرضعته ثوبية أمة عمه أبي لهب.

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ﷺ، انكح أختي بنت أبي سفيان فقال: «**أوتحبين ذلك**»، فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: «**إن ذلك لا يحل لي**»، قلت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «**بنت أبي سلمة؟**»، قلت: نعم، فقال: «**لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن**»[(١)]، قال عروة: وثوبية مولاة لأبي لهب، وكان ابو لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر خيبة قال له: ماذا لقيت؟. قال أبو لهب: لم ألق بعدهم رخاء غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة.

ثم استرضع ﷺ في بني سعد بن بكر[(٢)]،وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، وكانوا يقولون إن المرَّبىَ في المدينة يكون كليل الذهن فاتر العزيمة، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن أطفالًا يرضعنهم فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة السعدية.

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٤٣) النكاح، ومسلم (١٠/ ٢٥-٢٨) الرضاع.

(٢) قصة رضاع النبي ﷺ وردت من حديث حليمة بنت عبد الله بن الحارث السعدية نفسها رواها ابن إسحاق «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ١٨٣-١٨٨) ط. الأزهرية، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (كما في المطالب العالية ٤٢٥٢)، وابن جرير الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥٨-١٦٠) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (ص: ١١١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٣٢-١٣٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (السيرة النبوية ١/ ٧٤-٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (موارد ٢٠٩٤) وأبو يعلي في «مسنده» [٧١٦٣]، كلهم من طريق ابن إسحاق، ويبدو أن فيه انقطاعًا لكن له شاهد في «الصحيحة» رقم (٣٧٣) ورقم (١٥٤٥)، وقد قدمت حليمة السعدية على النبي ﷺ وهو نازل الجعرانة فأخرج البخاري في «الأدب المفرد» [١٢٩٥]، وأبو داود في «السنن» [٥٢٤٤]، وأبو يعلي [٩٠٠]، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٤٩موارد)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦١٨) من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة أن النبي ﷺ كان بالجعرانة يقسم لحمًا قال أبو الطفيل وأنا يومئذٍ غلام أحمل عضو البعير، قال: فأقبلت امرأة بدوية فلما دنت من النبي ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه قال: فسألت من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

وحصل له ﷺ وهو في بادية بني سعد بن بكر حادثة شق الصدر[١]، وروى مسلم عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: «هذا حظ الشيطان منك» ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: «إن محمدًا قد قتل» فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

**قال أنس:** وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[٢]، ثم أشفقت عليه مرضعته فأعادته إلى أمه، وتوجعت به أمه إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق، فماتت بالأبواء[٣] ودفنت هناك.

ولسان القدر يقول هذا الغلام لا يؤثر عليه أبوه وأمه بنوع من التربية، والله عَزَّ وَجَلَّ يتولى تربيته وتهذيبه، والأكثر على أن وفاة أمه آمنة كان وله ﷺ من العمر ست سنوات، فحضنته أم أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورق له رقة لم تعهد له في ولده.

روى عبد الرزاق في «مصنفه» عن معمر، عن الزهري قال: «ثم توفيت أمه فيتم في حجر جده فكان - وهو غلام - يأتي وسادة جده فيجلس عليها، فيخرج جده، فتقول الجارية التي تقوده، انزل عن وسادة جدك، فيقول عبد المطلب: دعي ابني فإنه يُحس بخير، ثم توفي جده ورسول الله ﷺ غلام»[٤].

---

(١) الحديث: رواه أحمد (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٢/ ٦١٦، ٦١٧)، والدارمي (١/ ٨، ٩)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وفيه نظر فإن بقية إنما له في مسلم فرد حديث متابعة كما قال الخرزجي، وهذا إسناد حسن فقد صرح بقية بالتحديث إلى أن قال: ولهذا الحديث شواهد كثيرة انظر «الصحيحة» رقم [٣٧٣].

(٢) رواه مسلم (٢/ ٢١٥-٢١٧) الإيمان، وقد تكررت حادثة شق الصدر في قصة الإسراء من طريق سليمان بن المغيرة قال: حدثنا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتيت فانطلقوا بي إلى زمزم فَشُرح عن صدري ثم غسل بماء زمزم ثم أنزلت**» رواه مسلم (٢/ ٢١٥) الإيمان.

(٣) قرية بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة.

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٣١٨) و البيهقي في «الدلائل» (١/ ٨٨، ٨٩)، وهذا مرسل صحيح إلى الزهري.

وتوفي عبد المطلب وكان عمر النبي ﷺ ثماني سنوات، فكفله شقيق أبيه أبو طالب، وكان به رحيمًا، وكان مُقِلًا في الرزق فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدةً منه لعمه.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله نبيًا إلا رعي الغنم**» فقال أصحابه: وأنت!، فقال: «**نعم. كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

**وعن جابر بن عبد الله قال:** كنا مع رسول الله ﷺ بمر الظهران نجني الكباث فقال: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيب**» فقيل: أكنت ترعى الغنم؟ قال: «**نعم وهل من نبي إلا رعاها**»(٢). ثم اشتغل ﷺ بالتجارة.

روى عبد الرزاق في «المصنف» عن معمر عن الزهري في سرده للسيرة قال: فلما استوى، وبلغ أشده وليس له كثير من مال استأجرته خديجة ابنة خويلد إلى سوق حباشة – وهو سوق بتهامة – واستأجرت معه رجلًا آخر من قريش فقال رسول الله ﷺ وهو يحدث عنها: «**ما رأيت من صاحبة أجير خيرًا من خديجة**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥١٦) الإجارة، ومالك (٢/ ٩٧١) الاستئذان بلاغًا، وابن ماجه (٢١٤٩) التجارات.

(٢) رواه البخاري (٩/ ٤٨٨) الأطعمة، ومسلم (١٤/ ٥، ٦) الأشربة، **والكباث**: هو النضيج من شجر الأراك.

(٣) عبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٣١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٩٠) و (٢/ ٦٨). وقد وردت روايات أخرى مطولة في خروج النبي ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وفي بعضها أنه ظهرت عليه ﷺ في هذه السفرة من العلامات الدالة على نبوته ما حدا بخديجة أن تطلب منه الزواج فاستجاب لذلك ﷺ وهي روايات واهية. انظر «الطبقات الكبرى» (١/ ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٥٥-١٥٧)، و«دلائل أبي نعيم» (١/ ٢١٩، ٢٢٢)، و«تاريخ دمشق» (١/ ١٠، ١١) «السيرة النبوية» للذهبي [٣١].

## فصل في حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية

**فمن ذلك:** أن الله عَزَّ وَجَلَّ صانه عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام، ومن أولى بهذه المنقبة من صاحب الرسالة العصماء التي هي أسمح الشرائع في العمل، وأشدها في إخلاص التوحيد والبعد عن الشرك، روى أحمد في «مسنده» عن هشام بن عُروة، عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «**أي خديجة والله لا أعبد اللات والعزى**»، قال: كان صنمهم التي كان يعبدون ثم يضطجعون[(١)].

**ومن ذلك:** أنه كان لا يأكل ما ذبح على النُّصُب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل، عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[(٢)] قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلَّا ما ذُكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكارًا لذلك وإعظامًا له»[(٣)].

**ومن ذلك:** توفيقه للوقوف بعرفة قبل البعثة، مخالفة لما ابتدع قومه من رأى الحُمس، والأحمس الشديد على دينه، وكانت قريش تسمى الحمس، وكان الشيطان قد استهواهم

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٢٢)، (٥/ ٣٦٢) وفضائل الصحابة (٢/ ٨٥١) رقم [١٥٧٨] وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٢٥): رجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» (١/ ٤٨٠) وقال: واد قبل مكة من جهة المغرب وقال الحافظ في «الفتح»: مكان في طريق التنعيم ويقال هو واد.

(٣) رواه البخاري (٧/ ١٤٢) رقم (٣٨٢٦) و(٥٤٩٩) بعضه، ورواه أحمد (٢/ ٦٩)، وابن سعد (٣/ ١/ ٢٧٦، ٢٧٧). قال الألباني: توهم زيد أن اللحم المقدم إليه من جنس ما حرم الله: ومن المقطوع به أن بيت محمد ﷺ لا يأكل ذبائح الأصنام، ولكن أراد الاستيثاق لنفسه، والإعلان عن مذهبه، وقد حفظ محمد ﷺ له ذلك وسُرّ به - هامش «فقه السيرة» للغزالي (ص: ٨٧).

فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم، فكانوا لا يقفون بعرفة يوم عرفة، وكان سائر الناس يقف بعرفة، وكانت شريعة محمد بعد ذلك الوقوف بعرفة، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

عن محمد بن جبير، عن أبيه جبير بن مطعم قال: أضللت بعيرًا لي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت النبي ﷺ واقفًا بعرفة، فقلت: هذا والله من الحمس فما شأنه ههنا[١].

**ومن ذلك:** حفظ الله عَزَّ وَجَلَّ له من أن تبدو عورته أو يظهر عريانًا، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ اجعل إزارك على رقبتك يقك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عينه إلى السماء ثم أفاق، فقال: «**إزاري إزاري**»، فشدَّ عليه إزاره.

وفي لفظ لهما من طريق زكريا بن إسحاق: عن عمرو بن دينار قال: «فَحلَّهُ فجعله على منكبيه فسقط مغشيًّا عليه، فما رؤي بعد ذلك عريانًا ﷺ »[٢].

وهكذا شبَّ رسول الله ﷺ يكلؤه الله، ويحفظه من أقذار الجاهلية ومعائبها، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ كما قال ابن إسحاق: إن كان رجلًا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم خلقًا وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تُدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين، لما جمع الله عَزَّ وَجَلَّ فيه من الأمور الصالحة[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٦٠٢) الحج، ومسلم (٨/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٥١٣) الحج، ومسلم (٤/ ٣٣، ٣٤).

(٣) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢٠٧) ط. مكتبة الكليات الأزهرية. بتصرف.

## (جـ) الأحداث الجسام قبل بعثة النبي ﷺ

### ١- حرب الفجار

وكانت بين قيس عيلان ومعها ثقيف وغيرها، وقريش والأحابيش وهم حلفاء قريش، وكان رئيس بني هاشم الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب وحمزة والعباس، وكان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، فكان يومًا من أشد أيام العرب هولًا، ولما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب، سُميَّ يوم الفجار، وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم قبائلها، ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين فمن وجد قتلاه أكثر، أخذ دية الزائد، فكان لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حرب بن أمية ورهن لسدادها ولده أبا سفيان، وهكذا انتهت هذه الحروب التي كثيرًا ما تشبه حروب العرب تبدؤها، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[١].

قال ابن هشام: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنيل على أعمامي - أي أرد عنهم - نبل عدوهم إذا رموهم بها»[٢]. وقال السَّهيلي: وإنما لم يقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه لأنها كانت حرب فجار، وكانوا أيضًا كلهم كفار، ولم يأذن الله لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا[٣].

وكان سنه ﷺ على الراجح عشر سنين، فقد ذكر موسى بن عقبة في «سيرته» أن بين الفجار وبنيان الكعبة خمسة عشر سنة، وأن بناء الكعبة كان قبل المبعث بخمس عشرة سنة، فعلى القول الصحيح أنه ﷺ بعث لأربعين سنة يكون سنه يوم الفجار عشر سنين[٤].

(١) باختصار وتصرف من «نور اليقين» (١٦، ١٧) ط. دار القلم.
(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢١٠). مع «الروض الأنف».
(٣) «الروض الأنف» هامش (١/ ٢٠٩)، مع «سيرة ابن هشام».
(٤) انظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٨-٦٠).

## ٢- حلف الفضول

**قال فضل الله الجيلاني:** اجتمع تسعة أبطن من قريش منهم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم - في دار ابن جُدعان - قبل عام الفيل بمدة لما حاول بنو عبد مناف إخراج السقاية واللواء من بني عبد الدار فتحالفت هذه الأبطن على ذلك، وبعثت إليهم أم حكيم ابنة عبد المطلب بجفنة فيها طيب فغمسوا فيها أيديهم، ثم ضربوا بها الكعبة فسموا بذلك المطيبين فجرى الأمر على هذا، حتى قدم مكة رجل من زبيد بتجارة له فباعها من العاص ابن وائل السهمي فمطله بها وغلبه عليها فاستغاث فاجتمعوا بدار عبد الله بن جُدعان: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها إلا قاموا معه، وكانوا على الظالم حتى يردوا عليه مظلمته، فهو الحلف الذي تحالفه المطيبون الذين لم يشهدهم رسول الله ﷺ أولًا وشهد حلف الفضول، وسمي بحلف الفضول لأن من قام به كان في أسمائه الفضل، كالفضل بن الحارث والفضل بن وداعة والفضل بن فضالة[١].

عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال: «**شهدتُ حَلفَ المطيبين مع عمومتي فما أحب أن لي حُمرَ النعم وأني أنكثه**»[٢].

## ٣- زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

**قال الغزالي:** «خديجة» مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غبنًا بالغًا من الواقع الذي

---

(١) فضل الله الصمد شرح «الأدب المفرد» هامش (٢/ ٢٨).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٧)، وابن حبان (٢٠٦٢ موارد)، والحاكم (٢/ ٢٢٠) التفسير، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأحمد (١/ ١٩٠ - ١٩٣) وهو في «الصحيحة» رقم [١٩٠٠].

يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم(١).

**قال ابن إسحاق**: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام(٢).

ولما رجع إلى مكة ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأخبرت بشمائله الكريمة وجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منيه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وكلم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها وكل أولاده منها سوى إبراهيم، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة، توفي عنها، وله منها ولد اسمه هالة، وهو ربيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

## ٤- بناء الكعبة وقضية التحكيم

الكعبة والمسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٧٩، ٨٠) باختصار.

(٢) «سيرة ابن هشام مع الروض الأنف» (١/ ٢١٢).

وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضِع في الأرض؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**» قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون يومًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركت الصلاة فصل، فإن الفضل فيه**»(١).

وأول من بني هذا البيت العتيق الخليل وولده إسماعيل صلى الله على نبينا وعليهما وسلم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فأوشكت الكعبة على الانهيار قيل: بحريق أصابها، وقيل: بسيل جارف، وكان ذلك قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات على الراجح، فلم تجد قريش بُدًا من إعادة بنائها.

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى ذلك روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال لها «**ألم تَرَي أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم**» فقلت: يا رسول الله ألا تردُها على قواعد إبراهيم؟ قال: «**لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت**».

فقال عبد الله رضي الله عنه: لئن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٦٩) أحاديث الأنبياء، قال الحافظ: وهذا الحديث يُفسر المراد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]، ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت وقد ورد ذلك صريحًا عن علي أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٦/ ٤٧٠) من «فتح الباري».

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٥٣) الحج.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة لأنهم شرطوا على أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربًا، ولا مظلمة لأحد، فأخرجوا من الجهة الشمالية ستة أذرع وهي التي تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وقد شارك النبي ﷺ في بناء الكعبة كما مر آنفًا من نقله الحجارة مع عمه العباس، وروى الإمام أحمد عن مجاهد عن مولاه أنه حدَّثه أنه كان فيمن يبني الكعبة في الجاهلية قال: ولي حجر أنا نَحتُّه بيدي أعبده من دون الله تبارك وتعالى، فأجيء باللبن الخاثر الذي أنفسه على نفسي فأصبه عليه فيجيء الكلب فليحسه ثم يشغر فيبول، فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر، وما يرى الحجر أحد، فإذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه، وقال الآخرون: نحن نضعه، فقالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من الفج، فجاء النبي ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ (١).

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٢٥) من حديث السائب بن عبد الله وحسنه الألباني وقال: ثم وجدت للحديث شاهدًا من حديث علي رواه الطيالسي في «مسنده» (٢/ ٨٦) بترتيب الشيخ عبد الرحمن البنا، هامش «٨٥» من «فقه السيرة» للغزالي.